

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ وَبِیَسْرٍ

كتاب قوت القلوب للمکى من أمهات الكتب فى التصوف الإسلامى، ويعتبر مع كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالى من أمهات كتب التصوف والتعليم الصوفى التى لا يُستغنى عنها فى تربية المريدين وتنقيفهم ثقافة إسلامية، ولا يضاهيهما فى ذلك كتاب آخر. والكتابان نبع ثرّ للفكر الصوفى، ويضمان أقوالاً لمشاهير المتصوفة وأعلام التصوف. واعتبر البعض التشابه بينهما دليلاً على أن الغزالى قد استنبطن كتاب القوت للمکى واستنبط منه كتابه الإحياء. ومن هؤلاء الدكتور زكى مبارك والدكتور هيد الرحمن بدوى. وفى كتابه عن رابعة العدوية يذهب الدكتور بدوى إلى أن الغزالى فى الإحياء «لم يفعل إلا أن نقل ملخصاً كلام صاحب القوت، بحروفه فى أغلب فصول كتابه الإحياء، فى الموضوعات المشتركة بينه وبين كتاب القوت». ويزيد الدكتور بدوى فيقول إن هذا النقل «يعطينا شاهداً آخر على مقدار ما لدى الغزالى من أصالة!!»، فكأنه يتهم الغزالى صراحةً بالنقل عن المکى، ويطعن فى أصالته!!

ويستشهد الدكتور بدوى بما ذكره المرتضى الزبيدى فى كتابه إتحاف السادة المتقين فى شرح إحياء علوم الدين للغزالى، من أن الغزالى قد أورد تفسير المکى لبعض أقوال الصوفية، ومنهم رابعة العدوية، ونقل ذلك عنه حرفياً. فهل الغزالى فعلاً وصدقاً قد نقل عن المکى؟ وهل كتاب الإحياء صورة ولو محرّفة عن كتاب القوت؟

الواقع أن المقارنة بين الكتابين تظلم المکى والغزالى معاً، فالمکى متصوف عالم، والغزالى فليسوف متألّه، وكتابات المکى فى القوت تختلف عن مثيلتها فى الإحياء بحسب المنهج وشخصية كلٍ. ولو قارنا مثلاً باب العلم فى الكتابين سنجد الكثير من التشابه، كما سنعثر أيضاً على الكثير من المغايرة. ويعتمد المکى فى شروحه على ما قاله الصوفية الأوائل والصوفية من معاصريه، ويحيل الكثير من آرائه إلى أستاذه وإماميه أبى محمد سهل وأبى الحسن بن سالم.

وبلغ عدد من ينسب إليهم من الصوفية أكثر من الثلاثمئة، ومنهم المشهورون كبشر الحارث، ومعروف الكرخي، وإبراهيم بن أدهم، والجنيد، والحسن البصري، وإبراهيم الخواص، ويوسف بن أسباط. ومنهم المغمورون الذين أهملت ذكرهم كتب طبقات الصوفية، كالحلية للأصبهاني، والرسالة للقشيري، مثل ابن أبي شبرمة، وفتح الموصلي، وابن الجراح، وابن ميسرة، وابن مغل وغيرهم.

وفى كتاب الإحياء فلسفة خالصة، مثل مقالته فى العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه، من باب العلم الذى نوهنا عنه، والغزالي فيها يسوق رأيه الخالص الذى ربما اعتمد فيه على الدارج المعروف عند أهل الفلسفة، ولكنه لا يستنبط من المكى، ولا يتماثل معه فيها لا من قريب أو بعيد. ومما يلفت النظر فى أمر الكتابين - القوت والإحياء - أنهما وُجِها معاً بالنقد الشديد - أو بالأحرى بالחסد الشديد - من جمهور الفقهاء، وأتهم المكى بالفلط. واعتبر ابن الجوزى مثلاً أن ترتيب المكى للصوفية أو المريدين ترتيبات فى المطاعم هو من تلبيس إبليس عليه، حيث قد حرّم عليهم الأكل وما تحتاج إليه النفس من الطعام والمشرب، على خلاف ما أحلّه الشرع وأمر به. وكذلك أتهم الغزالي وأنكروا عليه حتى أمر الشيخ الإمام بن حرزهم بجمع ما ظفر به من نسخ الإحياء وممّ بإحراقها، بل إن الأمر زاد على ذلك أن أدخلت فقرات على الإحياء تقطع بأن الغزالي ينقل كتبه عن الآخرين، ومن ذلك ما قيل بشأن كتابه «المستظهرى»، حيث يرد فى الجزء الثانى من الإحياء فقرة مدخولة تفيد أنه استنبط هذا الكتاب السابق من كتاب الباقلانى «كشف الأسرار وهتك الأستار»، والحقيقة أنه برغم التشابه أيضاً بين الكتابين، حيث أن موضوعهما واحد، وهو الرد على أصناف الروافض من الباطنية، إلا أن الغزالي انفرد بأبواب لم يتطرق إليها الباقلانى، مثلما فعل فى الإحياء حيث انفرد أيضاً بأبواب لم يتطرق إليها صاحب كتاب القوت.

والرأى عندى أن الكتابين - القوت والإحياء - يتكاملان، والمكى قد جمع أقوال السلف والكثير من الأخبار والأمثال والحكم، ونفذ إلى سرائر دقت على الأفهام، والغزالي مزج بين علمى الظاهر والباطن، وبلغ فى ذلك حداً جعل النوى يقول كاد الإحياء أن يكون قرآناً.

وبالمثل فإن كتاب القوت لتبع ثرّ ويحر زاخر، جاءت فيه المعانى فى أحسن سبك، حتى أن العلوم لو حدث أن كُشِطت، لأمكن استخراجها من جديد من القوت،

والقارئ للقوت والإحياء سوف يجد أنه مع كل قراءة ستظهر له أسرار وتبين له مفهومات. وشرح الكتاب والسنة يستوفيه كتابا القوت والإحياء، وهما يستوعبان معاً الطريقة الصوفية. وملازمة هذين الكتابين من محبة السلف وما كانوا عليه. والكتابان يجمعان بين الشريعة والطريقة والحقيقة في الدنيا والآخرة، فمن أراد طريق الله، وطريق رسوله، وطريق العارفين بالله، وطريق العلماء من أهل الظاهر والباطن، فعليه بمطالعة الكتابين - القوت والإحياء.

★★★★

والغزالي نكاد نعرف عنه كل شيء، إلا المكيّ فلا نكاد نعرف عنه إلا اليسير. ومن عيوب كتب التراجم للمشاهير أن أول كتاب يؤرخ فيه لأحد الأعلام فإن الكتب الأخرى اللاحقة عليه تتابعه على ما كتب. وإنه لشيء ملفت للنظر أن تتشابه ترجمة المكيّ في كتب **وهيات الأهيان** و**شذرات الذهبى** و**تاريخ بغداد** و**العبر** و**لسان الميزان**، فابن خلّكان يقول عن المكيّ: إنه أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي صاحب كتاب قوت القلوب، وكان رجلاً صالحاً مجتهداً في العبادة، ويتكلم في الجامع، وله المصنفات في التوحيد، ولم يكن من أهل مكة، وإنما كان من أهل الجبل وسكن مكة فنُسب إليها. وكان يستعمل الرياضة كثيراً حتى قيل إنه هجر الطعام زماناً واقتصر على أكل الحشائش المباحة فاخضرّ جلده من كثرة تناولها. ولقى جماعة من المشايخ في الحديث وعلم الطريق وأخذ عنهم، ودخل البصرة بعد وفاة أبي الحسن بن سالم فانتهى إلى مقالته، وقدم بغداد فوعظ الناس، وخطب في كلامه فهجروه وتركوه.

وقال محمد بن طاهر المقدسى في كتاب «الأنساب»: إن أبا طالب المكيّ لما دخل بغداد واجتمع بالناس في مجلس الوعظ، خلط في كلامه، وحفظ عنه أنه قال ليس على المخلوقين أضرار من الخالق، فبدّعه الناس وهجروه، وامتنع من الكلام بعد ذلك، وله كتب في التوحيد، وتوفى لست خلون من جمادى الآخرة من سنة ست وثمانين وثلثمائة ببغداد، ودفن بمقبرة الملكية بالجانب الشرقي، وقبره هناك مشهور ويزار رحمة الله عليه.

وقال ابن العماد الحنبلى: إن المكيّ نشأ بمكة، وتزهّد وسلك ولقى الصوفية، وصنّف ووعظ، وكان صاحب رياضة ومجاهدة، وكان على نحلة أبي الحسن بن سالم البصرى شيخ السالمية، وروى عن عليّ بن أحمد المصيصى وغيره.

وقال الحافظ أبو بكر البغدادي: إن المكيّ صنّف كتاباً سماه «قوت القلوب» على

لسان الصوفية، ذكر فيه أشياء منكرة مستبشعة في الصفات، وحدث عن علي بن أحمد المصيصي وأبي بكر وغيرهما .. وامتنع عن الوعظ في جمادى الآخرة من سنة ست وثمانين وثلثمائة.

وقال الإمام شهاب الدين العسقلاني: إنه المكي الزاهد صاحب قوت القلوب، سمع صحيح البخاري من أبي زيد المروزي، وله أربعون حديثاً أخرجها لنفسه، وكان على مذهب أبي الحسن بن سالم .

وذلك كل ما أمكننا جمعه عن المكي، غير أننا استطعنا من خلال دراسة كتابه القوت الذي أعطاه عنوان «قوت القلوب في معاملة المحبوب، ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد» - استطعنا أن نجمع الكثير حوله، فهو مثلاً من النقاد لعصره، ومن ذلك أنه ينقل عن ابن مسعود: لا تزالون بخير ما إذا حاك في صدر أحدكم شيء وجد من يخبره به ويشفيه منه. وإيم الله، أوشك أن لا تجدوا ذلك. ويعلق المكي قائلاً: وقد حصلنا في زماننا هذا في مثل ما خافه ابن مسعود، لأن مشكلة لو وردت في معاني التوحيد، وشبهة لو اختلجت في صدر مؤمن من معاني صفات الموحّد، وأردت كشف ذلك على حقيقة الأمر بما يشهده القلب الموفق ويثلج له الصدر المشروح بالهدى، كان ذلك عزيزاً في وقتك هذا، ولكنك في استكشاف ذلك بين مبتدع ضال يخبرك برأيه عن هواه فيزيدك حيرة، أو متكلم يفتيك بقصور علمه وبقياس معقوله على ظاهر الدين، وهذا شبهة فكيف تنكشف به شبهة، أو صوفى شاطح، تائه غالط، يجاوز بك الكتاب وألسنة لا يباليهما، ويخالف بقوله الأئمة فيجيبك بالظن والوسواس والحدس والتمويه وسقط العلم والأحكام، وهؤلاء تائهون في مفازة التيه لم يقفوا على الحجة، قد غرقوا في بحر التوحيد ويتكلمون فيما لم نُكَلَّف وما لم ينطق به السلف

والمكي في هذا الكتاب القوت ليس مجرد جامع للأقوال وإنما، هو مفكر له أصالته ورؤياه لعصره، وللفرق الدينية فيه. وما قيل في المكي من أنه قد غلط في التوحيد حتى هجره الناس لم يستقم مع ما يذكره في هذا المجال، فهو يقول: إن فرض التوحيد هو اعتقاد القلب أن الله تعالى واحد لا من عدد، وأول لا ثاني له، موجود لا شك فيه، وحاضر لا يغيب، وعالم لا يجهل، وقادر لا يعجز، حي لا يموت، قيوم لا يغفل، حلِيم لا يسفه، وسميع بصير، ملك لا يزول ملكه، قديم بغير وقت آخر، بغير حدٍ كائن، لم يزل ولا تزال الكينونة صفته لم يحدثها لنفسه، دائم أبد

الأبد لا نهاية لدوامه، والديمومة وصفه غير محدثها لنفسه، لا بداية لكونه ولا أولية لقدمه ولا غاية لأبديته، آخر في أوليته، أول في آخريته، أسماؤه وصفاته وأنواره غير مخلوقة له ولا منفصلة عنه، وأنه أمام كل شيء ووراء كل شيء، وفوق كل شيء، وأقرب إلى كل شيء من نفس الشيء، وأنه مع ذلك غير محل للأشياء، وأن الأشياء ليست محلاً له، وأنه على العرش استوى كيف شاء بلا تكيف ولا تشبيه، وأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وبكل شيء محيط، هو ذات منفرد بنفسه، متوحد بئوصافه، لا يمتزج ولا يزدوج إلى شيء، بائن من جميع خلقه، لا يحل الأجسام ولا تحل الأعراض، ليس في ذاته سواء، ولا في سواء من ذاته شيء. ليس في الخلق إلا الخلق، ولا في الذات إلا الخالق، فتبارك الله أحسن الخالقين، هو كما وصف نفسه وفوق ما وصفه خلقه. نَصَفَهُ بما ثبتت به الرواية وصَحَّتْ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه ليس كمثله شيء في كل شيء، بإثبات الأسماء والصفات، ونفى التمثيل والأنوات، وأنه سبحانه لم يزل موجوداً بصفاته كلها لم تزل له، وأن صفاته قائمة لا تزال كذلك، ولا يزال بها نهايةً ولا غاية، ولا تكيف ولا تشبيه، ولا تنزيه، بل بتوحيد هو متوحد به، وتفريد هو منفرد به، لا يجرى عليه القياس، ولا يُمثل بالناس، ولا يُنعت بجنس، ولا يُلمس بحس ولا بجنس من شيء. وهو الأزلى الذى لم يزل، والأبدى الذى لم يحل، أحد صمد لم يلد ولم يولد، ومعنى ذلك لم يتولد هو من شيء، ولم يتولد منه شيء، ومثل ذلك لم يخلق من ذاته شيء، كما لم تخلق ذاته من شيء، سبحانه وتعالى عما يقوله الملحدون من ذلك علواً كبيراً .

هذا هو المكى في توحيده لله تعالى، فكيف يتهم بالغلط وينكر عليه حتى ليهجره سامعوه؟! وإنما هو الحسد له، قد عانى منه الكثيرون، حتى لقد سَجِنَ مَنْ سَجِنَ، ونُكِّلَ بِمَنْ نُكِّلَ بِهِ، وشُرِّدَ مَنْ شُرِّدَ، وأُعدِمَ مَنْ أُعدِمَ بسببه. ومما يروى عن الجنيد رضى الله عنه أنه لم يكن يتكلم قط في علم التوحيد إلا في قلب بيته، وقد غلِقَ الأبواب، وأخذ مفاتيحها يضعها تحت فخذه، ويقول: أتحبون أن يكذِّبَ الناس أولياء الله تعالى وخاصته ويرمونهم بالزندقة؟ وكان سبب فعله ذلك تكلمهم فيه، فكان من بعد يستتر بالفقه إلى أن مات!

وكان الشيخ محيي الدين عربى يقول: من لم يُقْمِ بقلبه التصديق لما يسمعه من كلام هذه الطائفة فلا يجالسهم، فإن مجالستهم من غير تصديق سُمُّ قاتل. والملاحظ أن الكثير من كلام الصوفية لا يتمشى ظاهره إلا على قواعد الفلاسفة، ومن ثم كان من الواجب على العاقل أن لا

يبادر إلى الإنكار عليهم بمجرد عزو ذلك الكلام إليهم، بل ينظر ويتأمل في أدلتهم التي استندوا إليها، فما كل ما قاله الفلاسفة في كتبهم باطل، وإنما كان التحذير من مطالعة كتبهم خوفاً من حصول شبهة، ولا سيما من قبل أهل الإنكار والدعاوى.

ويشتمل كتاب القوت على أخبار رأينا حذفها للإطالة ولأنها غير مألوفة، ومعلومات ربما نعرفها لأول مرة، فيذكر المكي مؤرخاً للحسن البصرى وبدايات التصوف في البصرة: أن الحسن كان مجلسه أحد مجالس الذكر التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم: مجلس الذكر أفضل من صلاة ألف ركعة. وكان الحسن يخلو مع إخوانه وأتباعه من النساك والعباد في بيته، مثل مالك بن دينار، وثابت البناني، وأيوب السختاني، ومحمد بن واسع، وفرقد السبخي، وعبد الواحد بن زيد فيقول: هاتوا انشروا النور! فيتكلم عليهم في هذا العلم من علم اليقين، وفي خواطر القلوب ووسواس النفوس.

وينبئ المكي إلى أن مجلس الذكر الذي يعنيه ليس هو مجلس القصص، ولا يعنى به القصاص، لأنه رأى في القصص بدعة، ولم يقص في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويؤرخ لظهور القصص بوقوع الفتنة فظهر القصاص، فلما دخل على البصرة جعل يخرج القصاص من المسجد ويقول: لا يقص في مسجدنا. حتى انتهى إلى الحسن وهو يتكلم، فاستمع إليه ثم انصرف ولم يخرج. وجاء ابن عمر إلى مجلسه من المسجد فوجد قاصاً يقص، فوجه إليه صاحب الشرطة أن أخرجه من المسجد، فأخرجه. ويستنتج المكي أنه لو كان القص من مجالس الذكر، والقصاص علماء، لما أخرجهم ابن عمر من المسجد.

ومن رأيه أن علماء الآخرة هم الصوفية عن حق، وأن يكون المرء صاحب حديث صوفياً وليس صوفياً صاحب حديث. وهو يأخذ ذلك من حالة معروف الكرخي، فقد كان الإمام أحمد بن حنبل وكذلك يحيى بن سعيد رضى الله عنهما، يختلفان إليه ولم يكن يحسن من العلم والسنن ما يحسنانه، فكانا يسألانه. ويستشهد المكي بالخبر الذي يروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم سئل: كيف نصنع إذا جاء أمر لم نجد في كتاب الله تعالى، ولا في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال سلوا الصالحين واجعلوه شورى بينهم، ولا تقضوا فيه أمراً نونهم. وفي حديث معاذ فإن جاءك ما ليس في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسول الله؟ قال أقضى فيه بما قضى

الصالحون، فقال الحمد لله الذي وفق رسول رسوله، وفي بعضها أجتهد رأيي.

ويقول المكي إن أول كتاب صنف في الإسلام كتاب ابن جريح في الآثار، وحروف من التفاسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس بمكة، ثم كتاب معمر بن راشد الصنعاني باليمن، جمع فيه سنناً منشورة مبنوية، ثم كتاب المؤطأ بالمدينة لمالك بن أنس في الفقه، ثم جمع ابن عيينة كتاب الجوامع في السنن والأبواب، وكتاب التفسير في أحرف من علم القرآن، وجامع سفيان الثوري الكبير في الفقه والأحاديث، فهذه أول ما صنّف ووضع من الكتب بعد وفاة سعيد بن المسيب وخيار التابعين، وبعد سنة عشرين أو أكثر ومائة من التاريخ.

ومنهج المكي في القوت بشرحه فيقول: إن جميع ما ذكره فيه من الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم عن الصحابة وعن التابعين وتابعيهم، رسمه حفظاً، وساقه على المعنى إلا اليسير مما اتفق وجوده في يديه، وقرب تناوله منه من الأخبار التي فيها طول، فإنه نقله من مواضعه، وما بعد عليه فلم يفقهه ولم يشغل همته به، فما كان فيه من صواب وبيان وثبت، فمن الله تعالى بحسن توفيقه وقوة تأييده، وما كان فيه من خطأ وعجل وهوى، فمنه بالسهو والغفلة، ومن عمل الشيطان بالعجلة والنسيان. وما يسوقه عن أصحاب علم القلوب من أحاديث صحيحة بسند ضعيف، إنما لأن لهم مذهبهم في روايتها، والراوى قد لا يكون عند أصحابه من العلماء دون أصحاب الحديث ممن ضعفه، وأهل القلوب في روايتهم لها ليسوا متيقنين من باطلها، ولا يشهدون بروايتها إلا بما علموا، فطالما أن الأخبار الضعيفة لا تخالف الكتاب والسنة فلا يلزم ردّها، لأنه قد يكون فيها ما يدل عليها. وأصحاب علم القلوب يتعيّنون بحسن الظن، ومنهيون عن الكثير من الظن، ومنمومون بشوء الظن. والتوصل إلى الحقيقة غير ممكن إلا عن طريق المعاينة، ولا سبيل إليها، فاضطروا إلى التقليد والتصديق بحسن الظن بالنقل مع ما تسكن إليه قلوبهم ويرون أنه حق. وقد روى عن الإمام أحمد بن حنبل أن الحديث إذا لم ينافه كتاب أو سنة، وإن لم يشهد له، فإنه إن لم يخرج تأويله عن إجماع الأمة فإنه يوجب القبول. ويقول المكي إن الحديث الضعيف عنده أثر من الرأى والقياس، وهذا أيضاً مذهب الإمام أحمد بن حنبل. والحديث إذا تداوله عصران، أو رواه القرون الثلاثة، أو دار في العصر الواحد فلم ينكره علماءه، وكان مشهوراً لا ينكره الطبقة من المسلمين، احتمل وقوع به حجة وإن كان في سنده قول، إلا ما خالف الكتاب والسنن الصحيحة أو إجماع الأمة أو ظهر كذب ناقله بشهادة الصادقين من

الأئمة. ويرغم أن المكي يكرر دائماً أنه على مذهب شيخه أبي محمد سهل، فإنه يؤكد أيضاً أنه يشايح الجنيد وأحمد بن حنبل. وي طرح المكي رأيه بعد تمحيص الآراء الآخرين فيقول مثلاً ونحن لا نرى ذلك أو يقول والذي عندي في ذلك، أو يقول وأرى .

ويكثر المكي من الحكايات عن صوفية الإسرائيليين، ومن الأخذ من الكتب الإسرائيلية، فيقول «في أخبار موسى عليه السلام»، أو «في أخبار يعقوب عليه السلام»، أو «في الخبر أن رجلاً من بني إسرائيل»، ويورد عن الحسن البصري إلا أنه كثيراً ما يخالفه، فالحسن البصري مثلاً في مجال الخوف من الله عز وجل يخاف أن يقع بوصف الجبرية في ترك المبالاة، وأن يجعله الله تعالى نكالاً لأصحابه وموعظة لأهل طبقتة، فلما عوتب في شدة حزنه قال الحسن ما يؤمنني أن يكون قد أطلع على في بعض ما يكره فمقتني فقال إذهب فلا غفرت لك، فأننا أعمل في غير معمل!! ويرد المكي عليه بأن الخوف لا يكون لكثرة الذنوب، فلو كان كذلك لكننا أكثر خوفاً منه، وإنما يكون الخوف لصفاء القلب وشدة التعظيم لله تعالى.

وطريقة المكي في السرد عموماً طريقة جديدة، يعتمد فيها على تداعي الخواطر بخصوص الموضوع، فالشبيه يذكر بشبيهه، ويكون الاستطراد على هذا المنوال، فالخوف في مجاله يذكره بمختلف استجابات طوائف الصوفية إزاءه، فيقول إن أكثر المخاوف كانت في البصريين وأهل عبادان، فكان مذهبهم القدر والقول باللفظ وتفويض المشيئة وتقديم الاستطاعة، ومنهم العمريه أصحاب عمرو، والعبادية شيعة عباد، والفوطية والعطائية أصحاب هشام الفوطي وابن عطاء الغزالي، ومنهم التيمية نفوا نصف القدر، ومنهم المنازلية أصحاب المنزلة بين المنزلتين والقول بمقدور من قادرين وفعل من فاعلين، فابتلوا بالاعتماد على الأسباب وبالنظر إلى أولوية الاكتساب، فحببهم ذلك عن الله تعالى المقدر الوهاب، فهرب هؤلاء من الأمن والاعتزاز، فوقعوا في أعظم منهما من القنوط والإياس، فصاروا في كباثر المعاصي من خوفهم منها، فمثلهم مثل الخوارج خرجوا على الأئمة بالسيف لإنكار المنكر، فوقعوا في أنكر المنكر من تكفير الأئمة وإنكارهم السلطان وتكفيرهم الأمة بالصغائر، وهذا من أبدع البدع، وهؤلاء كلاب أهل النار. ومثلهم أيضاً مثل المعتزلة هربوا من طريق المرجئة، أن الموحدين لا يدخلون النار، فحققوا الوعيد على الموحدين، وخطأوا الفاسقين في النار، فجاوزوا حد المرجئة وزادوا عليهم، كما جاوزت المرجئة طريق أهل السنة وقصرت عنهم!

ولا يورد المكي مجرد آراء الغير ولكنه قد يخالفهم وقد يوافقهم، وقد يعرض الرأيين ويكون له رأي ثالث، فقد فاضل مثلاً بين حال الغنى وحال الفقير للمريد، فأورد رأي أحمد بن عطاء، والرأي المخالف للخوَّاص، ثم فضّل رأي الخوَّاص، فقال وقد خالفه الخواص فوفّق للصواب وكان فوقه في المعرفة.

ولسوف نجد المكي يكثر في كتابه القوت من قول «ويقول الحسن» ويقصد به «الحسن البصري»، فكلما فعل ذلك فاعلم أن المقصود به البصري!

ومن دأب المكي في طرحه لرأيه أن يستوفي الآراء الأخرى، وكائنما هو يلخصها جميعاً أو يقول المستفاد منها، وطريقته في ذلك أن يقول «واعلم أنني رأيت أن أجمل كذا»، فمثلاً بعد أن يتحدث حديثاً مستفيضاً في الزهد ويتناوله من جميع نواحيه ويستقصيه بكل أشكاله، وعند مختلف المذاهب، ولدى كل الأنبياء والمرسلين، والحكماء والصحابة والتابعين، والحواريين والأخبار والصوفية، يقول في نهاية الفصل مقالته التي يبدؤها .. واعلم أنني رأيت».

ويبدو المكي في هذا الكتاب الذي بين أيدينا متضلعاً في مذهب سهل بن عبد الله يتصدى لأقواله بالشروح الكثيرة. ويعتبر كتاب القوت خير مرجع للطريقة السالمية، وفيه جُماع آراء هذه الطريقة. وكان سهل بن عبد الله بن يونس التستري (٢٠٠ - ٢٨٣هـ) أحد أئمة الصوفية وعلمائهم المتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال، وله كتاب في تفسير القرآن، وكتاب رقائق المحبين. وطريقته في التصوف أصولية سنّية. يقول: «أصولنا ستة أشياء: التمسك بكتاب الله تعالى والاعتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق» ويقول: «ومن كان اقتداؤه بالنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن في قلبه اختيار لشيء من الأشياء، ولا يجول قلبه سوى ما أحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم».

وعنده أن المقتدى لا اختيار له بالاستحسان، وأن عليه أن يلزم نفسه سبعة أشياء: أولها الأمر والنهي وهو الفرض، ثم الأدب، ثم التهيب، ثم الترغيب، ثم السعة، فمن لم يلزم نفسه هذه السبعة ولم يعمل بها، لم يكمل إيمانه، ولم يتم عقله، ولم يتهنأ بحياته، ولم يجد لذة طاعة ربه».

وعنده أن عبادة الله على ثلاثة وجوه: على الخوف والرجاء والقرب. وأركان الدين أربعة: الصدق واليقين والرضا والحب. ويحيل المكي إلى سهل فيقول «وكان مذهب سهل». وكثيراً ما

ينسب مذهبه (أى مذهب سهل) للبصريين، أو أنه ينسب البصريين إلى مذهبه، فيقول وهذا أيضاً مذهب البصريين. ولعله مما يميز طريقة المكي أنه كثيراً ما يرد المذاهب إلى أصحابها الحقيقيين. ومن الغريب أنه يورد بعض الأقوال لرابعة العدوية باعتبارها عن المسيح عليه السلام، ولربما لذلك كان اتجاه بعض المستشرقين إلى أن ينسب بعض التصوف للتأثيرات المسيحية، وأن يجد فى أقوال رابعة العدوية مشابهة للأقوال المسيحية، مما حدا بالبعض أن ينسب رابعة نفسها لأصول مسيحية.

وهو يورد أنه فى أخبار عيسى عليه السلام أنه مرّ على طائفة من العباد قد احترقوا من العبادة كأنهم الشنان البالية، فقال من أنتم، فقالوا نحن عباد، قال لئى شئ تعبدتم، قالوا خوفاً من الله من النار فخفنا منها، فقال حق على الله أن يؤمنكم ما خفتم، ثم جاوزهم فمرّ بأخرين أشد عبادة منهم، فقال لئى شئ تعبدتم، قالوا شوقةنا لله إلى الجنان وما أعد فيها لأوليائه فنحن نرجو ذلك، فقال حق على الله أن يعطيكم ما رجوتم، ثم جاوزهم فمرّ بأخرين يتعبدون، فقال ما أنتم، قالوا نحن المحبون لله لم نعبده خوفاً من نار ولا شوقاً إلى الجنة ولكن حباً له وتعظيماً لجلاله، فقال أنتم أولياء الله حقاً، معكم أمرت أن أقيم، فأقام بين أظهرهم ويقول المكي مؤرخاً للتأثير والتأثر فى مجال التصوف أنه عمّن روى عنهم هذا القول وأقيم هذا المقام جماعة من التابعين بإحسان منهم أبو حازم المدني ومعروف الكرخي ورابعة العدوية، والأول قال إنى لأستحى من ربي أن أعبده خوفاً من العقاب فكون مثل العبد السوء إن لم يُعط أجر عمله لم يعمل، ولكن أعبده محبة له، والثانى قيل فيه كان يعبد الله لا خوفاً من نار ولا شوقاً إلى الجنة، بل حباً له، والثالثة قالت ما عبّدت الله خوفاً من الله فكون كالأمّة السوء إن خافت عملت، ولا حباً للجنة فكون كأمة السوء إن أعطيت عملت، ولكنى عبّدت حباً له وشوقاً إليه. ويرد المكي بعضاً من هذا المذهب فى التعبد لله إلى المسيح عليه السلام - كما رأينا - وبعضه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول رويانا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يكون أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل، ولا كالأجير السوء إن لم يُعط أجراً لم يعمل.

ومن القضايا التى يثيرها المكي فى القوت نسبة الأقوال والشعر لأصحابه حيث يورد فى باب المحبة أبياتاً من الشعر منسوبة إلى أبى سعيد الخراز فيردها إلى روايات عن أبى تراب النخشي ويحيى بن معاذ، ويقول المكي صراحة «إن الخراز أخذها منهما لأنهما أقدم منه». ومن

هذه القضايا أيضاً ما هو لغوى، ففي باب الفقر يدخل في جدل مع اللغويين حول معنى الفقير والمسكين فيقول إن أهل الله مختلفون فيهما، ويورد أقوالاً لابن السكيت والأصمعي ويونس بن حبيب، واستدلالات أهل العراق من هذه التفسيرات، ثم يقدم تفسيره هو مدلاً عليه مما ورد في الأخبار عن النبي والصحابة والصوفية والحكماء.

ومن طريف ما نذكره عن المكي طالما أنه قد ورد ذكر العراق والعراقيين أنه كان شديد التحامل عليهم، ففي باب الرضا يذكر عن بغداد وأهلها أنهم جزوعون عن الصبر وكفوريون بالنعمة، وقد روى عن عبد الله بن المبارك قال طفت الشرق والغرب فما رأيت بلداً شراً من بغداد، قيل وكيف ذلك يا أبا عبد الرحمن، قال هو بلد تُزرى فيه النعمة وتُستصغر فيه المعصية. وقيل له لما قدم خراسان كيف رأيت الناس ببغداد، قال ما رأيت بها إلا شرطياً غضباناً أو تاجراً لهفاناً أو قارئاً حيراناً. وقيل إنه كان يتصدق كل يوم ديناراً لأجل مقامه ببغداد إلى أن يخرج إلى مكة. ويقول المكي إنه قد بلغه أنه كان يتصدق بستة عشر ديناراً؛ وينسب المكي إلى سفيان الثوري أنه قال عن العراق أنه بلد الجبابرة!

ويبدو أن هذه الأقوال وإن كانت تحاملاً إلا أنها تأتي منه كمحاولة لفلسفة عن المكان وعن الزمان، فبعض الأزمنة تتمايز عن أخرى كيوم الجمعة بالنسبة للمسلمين، أو يوم عرفة، و يوم عرفة إذا وافق يوم الجمعة، وشهر رمضان والشهور الحرم وهكذا. وكذلك في الأماكن، وفي الخبر أن الله أول ما ينظر من الأرض الحرم وأهله، وأول من ينظر إليهم أهل المسجد الحرام. ويقول المكي عن عبادان نقلاً عن أبي تراب النخشي رأيت الثغور كلها تسجد لعبادان، ورأيت عبادان ساجدة لجدة لأنها خزانة الحرم وفُرصة أهل المسجد الحرام. ويروي عن سفيان الثوري يقول والله لا أدرى أي البلاد أسكن، فقيل له خراسان، قال مذاهب مختلفة وآراء فاسدة، وقيل الشام قال يشار إليك بالأصابع، وقيل له مكة قال تذيب الكيس والبدن. ويروي المكي عن عمر أنه قال لمولى له أين تسكن، قال العراق، قال ما تصنع هناك. بلغني أنه ما من أحد سكن العراق إلا قُبِض له قرين من البلاء. وقال ذكر كعب الأحبار العراق يوماً فقال فيه تسعة أعشار الشر، وفيه الداء العضال. ويقول المكي إن أول فرقة مرقت من الدين وأتبعته غير سبيل المؤمنين كانت من البصرة، والفرقة الثانية كانت من المدائن، والثالثة من البصرة، والفرقة الرابعة من الكوفة، ثم افتترقت كل فرقة ثمانية عشرة فرقة، فتّمت اثنتان وسبعين فرقة، وكلها نَبَع بأرض العراق، ومنه

طلع قرن الشيطان وظهرت الفتن. ومَن سكن بلداً كثيراً المنكر ظاهر المعاصي، فكان منزعجاً فيه، غير مطمئن إليه، يرغب إلى الله تعالى في إخراجه منه، وكان مضطراً للمقام فيه لعلية ثقيلة أو قلة ذات يد، وعلى يقين من سلامة دينه، فإنه معذور عند الله. وفي تفسير قول الله تعالى - ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها - أنه إذا كنت في بلد يعمل بالمعاصي فالواجب التحول منه إلى غيره. وتلك هي نظرية المكّي في المكان. ومن الغريب أن المكّي ينسب إلى المصريين قتل عثمان، ففي معرض التاريخ للخوارج يقول المكّي هم أول قرن نبع من المبتدعين وأول بدعة ابتدعت في الإسلام، قالوا لا حكم إلا لله ورأوا الخروج على الإمام، وكفروا عثمان وصوبوا قتل غوغاء المصريين له. وذلك أول تعبير أصادفه عن مصريين اشتركوا في مقتل عثمان ولاحظ قوله «غوغاء» المصريين!!

وكتاب القوت ليس في العبادات، وسيرى القارئ أن ما كتبه المكّي فيها هو في فلسفة العبادات وليس في فقهاها، ففي الصوم مثلاً يتناول أدق خلجاته وخطراته، والصوم المعنى عنده هو صوم الخصوص وليس صوم العوام، ويتناول الفروق بين السائل والمحروم والقانع والمعتّر من زوايا نفسية محضة. وما يهتم الكتاب بتناوله هو قوت الأعمال. ويشرح المكّي طريقة الصوفية شرحاً وافياً، ويبين الفروق بين المدارس الصوفية الكبرى في الطعام واللباس وغيره، ويصف إلى أدق التفاصيل اختلاف الصوفية البغداديين عن الصوفية البصريين، ويقارن بين الاثنين فيقول إن طريقة البغداديين أعلى وطريقة البصريين أسلم. ويتحدث في الحمية الصوفية كأحكم ما يكون الحديث ويفصّل ذلك حتى أنه ليذكر أن الرغبة يتكون من ٣٦ لقمة، ويوزع اللقمة على مدار الساعة، فكل ثلاث لقمة لساعة، واليوم كله له رغيقان!!

وكانت للمكّي اجتهاداته برغم أن كتابه «القوت» من نوع الكتب الجامعة لمختلف الآراء، وهو من دعاة التوسط، ورأيه يتوسط كل المذاهب والآراء، واختياره دائماً للأفضل فيقول «وأستحب أن» أو «أكره أن». ورغم أنه كثير الاستطراد إلا إنه يصف طريقته فيقول إنها تتوخى الإيجاز، ويقول لم يكن قصدي جمع كل ما قيل في كل فن، وإنما الإيجاز في إيراده والاكتفاء بذكر الأقوال المستحسنة وما تعلق بها مما لا بد منه.

ومن أهم فصول كتاب القوت الفصل الذي يعقده المكّي للأخوة في الله والقواعد والأسس التي بها يمكن أن تتصلح المجتمعات. والبناء التحتي للمجتمع الأمثل الذي ينادى به المكّي بناء

مادى قرانه توزيع الثروة والعلاقات الاقتصادية بين الأفراد، والبناء الفوقى الذى ينهض عليه، والذى يشمل العرف والعادات والتقاليد والقوانين والأخلاق والسياسة والتعاليم والفلسفات والمعارف، بناءً مثالى يحكى عنه المكى فيقول: لم يكن أحد فى المجتمع الإسلامى السلفى يقول فى رحله «هذا لى وهذا لك» (يقصد ما فى الرُحْل من أنوات إنتاج أو استهلاك)، وكان كل من احتاج إلى شئٍ استعمله عن غير مؤامرة (أى احتيال)، والله سبحانه وتعالى يصف المؤمنين حقاً بذلك فى قوله تعالى - وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون، ويشرح المكى الآية فيقول معنى أمرهم أى أمورهم فذكرها بصيغة الجمع لشئٍ واحد بينهم، وشورى أى مشاع غير مقسوم ولا يُستبد به، وأحدهم فيه سواء، ومما رزقناهم ينفقون أى كانوا خلطاء فى الأموال لا يميز بعضهم رحلته من بعض، أى شركاء. ويبشر المكى بمجتمع لا نقول إنه شيوعى ولكنه «شركة إسلامية» أو مجتمع شركات "socialistic" وليس «اشتراكياً» "Socialist" إذ المجتمع الاشتراكى كما حدثونا عنه منذ روبرت أوين (١٨٢٧م) وليام جوبوين مجتمع يوتوبى يتساوى فيه الناس فى الفرص وأمام القانون، واختلفوا فيه بصدد الدخول، وظهر اختلافهم فى صياغة شعار الاشتراكية «من كل حسب قدرته وإلى كل حسب احتياجاته» أو «وإلى كل حسب جهده أو حسب إنتاجه». واشتراكية أو بالأحرى اجتماعية المكى بخلاف ذلك، لأن الفرد فيها يأخذ بقدر حاجته كمسلم يعى وجوده داخل الجماعة الإسلامية، وبحسب نصوص الشريعة والسنة، بصرف النظر عن جهده أو إنتاجه، وقد يكون جهده أكبر من الباقين وما يتقاضاه أقل منهم. ويطلق المكى اسم المؤاخاة على هذا النظام، ويصف ذلك فيقول كان الحسن البصرى يدخل بيته فيجد إخوانه فيه يأكلون ما يجنون بغير إذن، وكان يُسرّ لذلك ويقول هكذا كنا. ويقول المكى عن أحد هذه التجمعات الإخائية: كان بيت سعيد بن أبى عروبة فيه الطعام معروضاً للناس ظاهراً لهم، فاللحم كان مسلوخاً مُصلقاً، والخبز موجود ظاهراً. وكذلك كان يفعل بالثياب والأثاث. وكان جميع ما فى منزله مسبلاً، فكل من دخل عليه من إخوانه إن شاء قطع من المسلوخ فشوى وطبخ، وإن شاء أكل من الخبز بما وجد من الأدم، ومن شاء لبس من الثياب ما شاء. فكان ذلك مشاعاً فى منزله لمن أراد تناوله. ويقول المكى أيضاً: إنه فى مثل هذا المجتمع الإخائى كان بعضهم ينقطع فى منزل أخيه يفرده بمكان يقوم بكفائته ولا يبرح من منزله على الدوام.

وأساس هذا الإخاء الإشتراكى الذى يبشّر به المكى الأخلاق والتربية الإسلامية والسنة النبوية وسلوك الصحابة رضوان الله عليهم، فالفرد المسلم مأمور بالحركة فى الحياة حركة

تستوعب حاجاته وحاجات من يعولهم، وكذلك حاجات من لا يستطيعون الحركة أو لا يقدرّون على الوفاء بما تقوم به حياتهم، وذلك هو الفرق بين الاشتراكية العلمانية أو العلمية واشتراكية الإسلام عند المكيّ.

ومن السنة البذل للإخوان والمشاركة بينهم في كل شيء، أو كما يقول الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، والأصل في ذلك ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المسلم يأكل في مَعَى واحد، والمنافق في سبعة أمعاء.

وهذه الإخائية التي يتمثلها المكيّ في كتابه «القوت» وينبّه إليها عن الرسول صلى الله عليه وسلم نقلاً عن مجتمع المدينة الذي أذى فيه النبي عليه صلوات الله وسلامه بين المهاجرين والأنصار - أقول هذه الإخائية تسبق الاشتراكية الأخلاقية التي قال بها كمنظرون. ومذهب كمنظرة يعطى الأولوية للعلاقات الأخلاقية ولا يقرّ مقولات ماركس القائمة على صراع الطبقات والثورة الاجتماعية ودكتاتورية البروليتاريا، ويجعل من الأخلاق علماً موضوعه رفع التناقضات في العلاقات الاجتماعية. ومقارنة المكيّ وكمنظرة ترفع من شأن المكيّ في هذه الخصوصية إلى السماكين بجميع المعايير، لأن كمنظرة يقيم اشتراكيته الأخلاقية على مقولة إنسانية حيث يجعل شعاره «إعمل دائماً بحيث تعتبر الإنسانية سواء في شخصك أو في الآخرين غايةً وليست مجرد وسيلة». والمكيّ يقيم إخائيته على الدين، ويرجع الأخلاق إلى الدين، ويردها إلى ناموس الله في خلقه والكون، ولا يعتبر نفسه متحدثاً فيها من فراغ فلقد عايشها الرسول والصحابه أجمعون معيشة حقيقية وواقعية، بينما كمنظرة كان حديثه فيها مجرد أمانى، وانتهى من مناقشته لميتافيزيقا الوجود إلى أن الدين لم يسبق الأخلاق ولم يحددها، وأن الأخلاق على العكس هي التي أدت إلى الدين. واشتراكية كمنظرة لذلك كان أساسها الأخلاق والفرد الأخلاقي باعتبار الأخلاق أساس الاجتماع، بينما، اشتراكية المكيّ أساسها الدين والفرد العابد الذي يفعل في الحياة بالنية، فالأعمال لبها النوايا، والأعمال التي تهمة هي أعمال القلوب، والإنسان المثالي في الإسلام هو الرسول صلوات الله عليه وسلامه الذي وصفه الله بأنه على خلق عظيم. وكتاب المكيّ أساساً في المعاملة أي في الأخلاق، وإنما هي الأخلاق التي أساسها تمثل المؤمن لمبدأ الخلق في الوجود وهو المحبة، وتقوم على الإيمان بالله والتوكل عليه والتسليم له، والتقوى والورع

والزهد والتجرد، وكلها أساسيات اعتقادية. وطريقة المكي طريقة اعتقادية إيمانية، وطريقة كنف عقلانية فلسفية، «والقوت» الذي يصفه المكي هو «قوت القلوب»، بينما القوت الذي يتحدث فيه كنف هو «قوت العقول» الذي يصلح به التفكير العقلاني الفلسفي على مذهبه المثالي الذي يقوم على التصور الفكري الترانسندنتالي، وأفكاره مصادرها الحس والعقل وليس فيها نكر للنية.

ويتفوق المكي كعالم نفس يهتم بالتحليل النفسي ويفرّق بين أدق الخواطر والوساوس والمشاعر والأحاسيس، وله كلام رهيف في الفروق بين المداراة والمداهنة، والفراسة وسوء الظن، واليقظة والحسد، والعتاب والتوبيخ، والصدقة والأخوة، والمودة والمحبة، ويفوص في المعاني وأضدادها، ويصل في تحليل النفس إلى أبعد الأغوار.

والإخاثيون أو الإخوان الذين يكتب عنهم المكي ليسوا فقط مجتمع المدينة في عهد الرسول وخلفائه، ولكنهم كل مجتمعات الإسلام إذا عادوا إلى الدين الحق وتعلموا على المشايخ الأجلاء، وهم مجتمع وصفهم الله تعالى فقال: ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. ويحكي المكي في المؤاخاة عن أبي هريرة عندما سأله أحدهم أن يؤاخيه: أتدرى ما حق الإخاء؟ قال الرجل عرفنى. قال أن لا تكون بدرهمك ودينارك أحق مني!! ويحكي المكي عن علي بن الحسين رضى الله عنهما أنه سأل هل يدخل أحدكم يده في كيس أخيه فيأخذ منه ما يريد؟ فهذه هي المؤاخاة. ويصل الأمر عند المكي أن يقول: إذا مات صديق الرجل فقد فقد عضواً من أعضائه!!!

وفي الفصل الخامس والأربعين يتحدث المكي عن التوافق العائلي بين الأزواج ويفوص في أعماق العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة كأي من علماء النفس المعاصرين، وكواحد من المتخصصين في الطب النفسي، ويصف أنواع الزواج والخلافات العائلية ويتعرض لعلاجها، ويصنّف الأزواج والزوجات في أنماط، وهي أول مرة فيما نعلم يُذكر في باب النساء من يطلق عليهن المكي الأئانة والمنانة والخئانة والحدّاقة البرّاقة والشداقة. ويعرّف الأئانة مثلاً بإنها التي تكثر الأنين والتوجع والتشكى، والمنانة هي التي تمن على زوجها. ويذكر أيضاً من أنماط النساء المختلطة والمباهية والعاهرة والناشز. والمختلطة مثلاً هي التي تطلب الخلع من زوجها أي الطلاق، وتهده به باستمرار، والمباهية هي التي تدأب على الطلب لتباهي غيرها وتفتخر على نظائرها.

وينصح المكي الأزواج بما ينصح به العلماء الكبار مثل ماسترز وجونسون وكثيرين غيرهما ممن كتبوا في موضوع الجنس والزواج. ينصح الرجل في الوطء ليمهل على أهله وليتوقف

حتى تقضى هي نهمتها كما يقضى هو نهمته، فربما تأخر إنزال المرأة لما بعد إنزال الرجل فيكون ذلك كريهاً لها، فإن علم أنها سبقت بالشهوة لم يحتج إلى التوقف، وليس يخفى سبقها بالشهوة على فطن، وأوفق ما يكون الجماع بينهما إذا اتفقت الشهواتان منهما معاً، وأكثر ما يكون التباعد بين الزوجين لاختلافهما من طبع الإنزال أن يكون طبعه سابقاً لطبعها، ويحكي المكي من سيرة السلف أنهم لم يكونوا يتأخرون عن المرأة حتى يستأمرها في ذلك، وينبغي له أن يعلمها، وهذه بعض التربية النفسية الجنسية فيما يخص الرجل والمرأة ويريد المكي للمريد أن يحيط بها ويعمل بمقتضاها في حياته مع أهل بيته.

والمهم في كتاب «القوت» للمكي أنه كتاب في فلسفة الدين، وفيها يتحدث المكي كثيراً عن سنن السلف بقصد التزيين لها والحض عليها بعد أن يشرحها. ويحكي عما كان متبعاً من العادات والتقاليد فيقول وهذه سنن قد عفت ومن عمل بها فقد نَعَشَهَا، أو يقول وهذا طريق قد مات فمن قام به فقد أحياه، أو وهذا التفقد والبحث طريق قد مات فمن عمل به فقد أحياه، أو وهذه الطريقة قد جهلت فمن عمل بها فقد أظهرها، أو وهذا طريق قد مات أهله فمن سلكه فقد أحياهم، أو وهذه سيرة المتقدمين وطريق السابقين فمن سلكها لحق بهم وكان أحدهم. أي أن المكي ينبه إلى سنن قد عفت وطريقة مات أهلها، فكأنه بإحيائها يحييهم أو يلحق بهم ويكون كأحدهم، وهذا هو ما يحبذ المكي للمريد وهو درب السالكين إلى الله تعالى. ولقد قيل إن الإسلام كله آداب فمن لزم آدابه فقد بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيعها فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يرجو القبول. والمكي يرجو للمريد حسن آداب الظاهر والباطن، فلا ظاهر لمن لا باطن له، ولا باطن لمن لا ظاهر له، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول «لو خشع قلبه لخشعت جوارحه».

والمكي قرأني يدل على الداء والدواء، والداء هو الذنوب، والدواء الاستغفار، والإسلام هو اتباع الأخلاق السنية والتخلي عن الأخلاق الدنية، والمسلم دائم التصفية لنفسه وقلبه دوام افتقاره إلى مولاه، فبدوام الافتقار ينفي عن نفسه وقلبه الكبر، وكلما تحركت نفسه بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته الناقدة وفرّ منها إلى ربه، فبدوام تصفيته جمعيته وبحركة نفسه، تفرقت وكدره، فهو قائم بربه على قلبه، وقائم بقلبه على نفسه، والله تعالى يقول - كونوا قوامين لله شهداء بالقسط - وهذه القوامية لله على النفس هي التحقق بالإيمان، ولا بد للمؤمن من دوام

الحركة بدوام الانتقار ودوام الفرار وحُسن التفقد لمواقع إصابات النفس. والمكّي غاية من كتابه «القوت» أن يوقف المرید على هذا المعنى فيكون المتحقق بالله سبحانه، وكان فلسفة المكّي يلخصها أنا أعبد الله فأننا موجود - إذ الوجود كل الوجود هو التعبد لله تعالى، فيصدق فيه قول القائل في هذا النفر من البشر الذين يحيون بالعبادة لله :-

قوم همومهم بالله قد علقت فما لهم هممٌ تسمو إلى أحد
فمطلب القوم مولاهم وسيدهم يا حُسن مطلبهم للواحد الصمد

عبد المنعم الحفنى

★★★★

★★

★